الغموض بين المبدع والمتلقي
عند عبد القاهرالجرجاني

خولة صالح صيهود
كلية التربية/جامعة القادسية

الخلاصة :
يتناول هذا البحث ظاهرة الغموض في تراثنا العربي ٠ حيث يتجسد هذا الغموض من خلال اساليب البلاغة التي تجعل العمل الابي يتميز من غيره من انماط الكلام٠
وقد تناول البحث هذه الظاهرة من خلال اراء ناقد وبلاغي كبير هو عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١ هـ) الذي تعمق فيها وقلب الوجوه وركز على الغموض من جهة تعلقه بطريقة التعبير الشعري الناتج عن طريقة التفكير الشعري، لان القصيدة في الغالب قائمة على طبيعة تفكيرية قد تتعمق فتصبح فلسفة عند قليل من الشعراء الكبار ، أي ان الشاعر يمتلك خلفية فكرية ٠
فالشعر ليس الفاظآ ورنيناً بل تنبثق تجربتة من اتون فكري بحيث تمتلىء رموزه بالدلالات السياسة والاجتماعية والتاريخية والنفسية٠
وقد انقسم هذا البحث الى ثلاث مباحث :
المبحث الأول : الغموض مفهومآ ومصطلحا
المبحث الثاني : عناصر الغموض عند عبد القاهر الجرجاني
المبحث الثالث : الغموض والمتلقي

االاً : الغموض مفهوماً ومصطلحاً

أشارت المعاجمات العربية القديمة الى الغموض من خلال إستخداماته اللغوية المختلفة فالغموض في اللغة مصدر من غمض (بفتح الميم وضمها) وكل مالم يصل إليك واضحاً فهو غامض ، ولذلك فالغامض من الكلام خلاف الواضح ، كما يقال للرجل الجيد الرأي قد أغمض النظر . والمسألة الغامضة : وهي المسألة التي فيها دقة ونظر . ومعنى غامض : لطيف [١] ٠
والغموض المعني هنا هو ماشدك الى حوار معه ، واستفز مشاعرك وعقلك من خلال غموض عباراته وصوره وتعدد دلالاته وقراءته ، مما يخلق نوعاً من اللذة الحسية والذهنية تجاه خبايا النص واللامتوقع واللامنتظر في صورة جمالياته الفنية وهذه الحال نوع من التواصل والألفة بين النص والقارئ ٠
وقد نال مصطلح الغموض من القلق والاضطراب أكثر من أي مصطلح نقدي آخر٠ ويعود هذا القلق والاضطراب في تحديد مصطلح الغموض الى تعدد مستوى درجاته ، والى الاختلاف في تحديد مفهومه ، ومعرفة غايته وأهميته ، كما تعود إشكالية تحديد مصطلح الغموض إلى مرادفاته اللغوية الكثيرة مثل التعمية والإبهام والاستغلاق والألغاز وغيرها من التسميات التي ربما يضلل بعضها المتلقي في تقدير أهمية المصطلح ومفهومه ووظيفته ٠ [٢]
مما لاشك فيه ان ظاهرة الغموض قد لفتت أنظار العلماء العرب القدماء منذ وقت مبكر ، فأننا نجد حديثهم عن الغموض في دراسات المفسرين والاصوليين واللغويين والنحاة والبلاغيين، وقد كانت عنايتهم بالجانب التطبيقي عناية كبيرة كما هو شأنهم دائماً في دراسة أي ظاهرة في الشعر العربي، وقد أستخدموا في الدلالة على ذلك مصطلحات كثيرة أشاروا بها الى غموض المعنى ودرجات هذا الغموض مثل تعدد المعنى ، وغير ذلك ، سواء في القرآن الكريم أو الشعر ، وتعددت هذه المصطلحات وأختلفت أختلاف العلماء بين مفسرين ولغويين ونحاة وأصوليين وبلاغيين ٠

وكذلك فقد تعددت عند العلماء العرب القدماء الأسباب التي عزوا إليها غموض المعنى ، فكانت أما تعود الأسباب الى البنية الصوتية للكلمة والكلام ، أو تعقد التركيب النحوي ، أو بعد الأستعارة والتشبيه وأستغلاقهما ، أومخالفة قواعد عمود الشعر العربي [٣] .

فقد أستخدم سيبويه (ت ١٨٠ هـ) مصطلح اللبس للدلالة على الغموض الناشئ عن وجود لفظ يحتمل أكثر من معنى أو دلالة أو تركيب يؤدي الى الغموض يقول سيبويه : " وينبغي لك أن تسأل عن خبر من هو معروف عند (يقصد السامع) كما حدثته عن خبر من هو معروف عندك بالمعروف ، وهو المبدوء به " [٤] . ويقصد سيبويه هنا بأن الأصل في المبتدأ أن يكون معرفة لكي يصح السؤال عنه ، وإذا لم يكن كذلك وقع الغموض في الكلام ، وترتب عليه عدم فهم السامع .

وقد التفت الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ) الى مثل هذا الأمر في البيان والتبيين ، فقال في الغموض الذي يلحق المعاني : " المعاني القائمة في صدور الناس ، والمتصلة بخواطرهم والحادثة عن فكرهم ، مستورة خفية ، وبعيدة وحسية ومحجوبة مكنونة " [٥] . فالشاعر حين يعبر عن أنفعاله يكون على وعي بأن لديه أنفعالاً وقلقاً واضطراباً يتردد في جوانحه يدفعه لقول الشعر ، إلا أنه لا يعي ماهية هذا الأنفعال الا بعد أن يكون عبر عنه بالفعل ، وأثناء تعبيره فأنه ينظر الى ذاته والمتلقين بنفس الطريقة بمعنى أنهما معاً يحاولان اكتشاف طبيعة انفعالاته ويحاولان ادراك ماهيتها [٦].ولهذا لايكون هذا الأنفعال واضحاً بل مشوب بالغموض عند الشاعر كما هو عند المتلقي ، ف " الشعور يظل مبهماً في نفس الشاعر فلا يتضح له إلا بعد أن يتشكل في صورة " [٧] .

واشارالجاحظ الى أهمية الغموض ، فالناس كما يراهم " موكولون بتعظيم القريب وأستطراف البعيد " [٨] ، ووضح الحقيقة النفسية لأثر الغموض ، فقال : " أن الشيء من غير معدنه أغرب ، وكلما كان أغرب كان أبعد في الوهم ، وكلما كان أبعد في الوهم كان أطرف وكلما كان أطرف كان أعجب ، وكلما كان اعجب كان أبدع " [٩] .

ولعل الآمدي (ت ٣٧٠ هـ) من أوائل النقاد العرب القدماء الذين أستخدموا مصطلح الغموض في كتابة الموازنة بين أبي تمام والبحتري ، حيث وصف شعر أبي تمام بالغموض والأستغلاق في المعاني والصور مقابل وصفه لشعر البحتري الذي يتسم بوضوح المعنى وقربه. ويقول الآمدي : " فأن كنت ..... ممن يفضل سهل الكلام وقريبه ، ويؤثر صحة السبل وحسن العبارة وحلو اللفظ وكثرة الماء والرونق فالبحتري أشعر عندك ضرورة . وأن كنت تميل إلى الصنعة ، والمعاني الغامضة التي تستخرج بالغوص والفكرة ، ولاتلوي على غير ذلك فأبو تمام عندك أشعر لامحالة " [١٠] .

ويقول كذلك بهذا الخصوص ناسباً أبا تمام الى النزعة الفلسفية والتعقيد والغموض : " وذلك كمن فضل البحتري ، ونسبه الى حلاوة اللفظ ، وحسن التخلص ووضع الكلام في مواضعه ، وصحة العبارة ، وقرب المآتي ، وأنكشاف المعاني ، وهم الكُتاب والأعراب والشعراء لمطبوعون وأهل البلاغة ، ومثل من فضل أبا تمام ، ونسبه إلى غموض المعاني ودقتها ، وكثرة ما يورد ، مما يحتاج إلى أستنباط وشرح وأستخراج ، وهؤلاء أهل المعاني والشعراء أصحاب الصنعة ومن يميل الى التدقيق وفلسفي الكلام " [١١] .

ويكشف هذا الفهم للآمدي عن إدراكه لأهمية الغموض ووظيفته في الشعر ، وذلك على الرغم من تفضيله لشعر البحتري على شعرأبي تمام . إذ حدد الآمدي أسباب الغموض وعناصره في شعر أبي تمام ، وعبر كذلك عن دهشته إزاء الغموض ومناجاته في شعره، وبذلك يكون الآمدي أول من وضع مصطلح الغموض الشعري أمام النقاد العرب القدماء .

وقد أتضح معنى الغموض وأهميته عند أبي أسحق الصابي (ت ٣٨٤ هـ) ، حيث حدد الفرق بين النثر والشعر ، مبيناً أن النثر مجاله الوضوح في المعاني والألفاظ ، وأما الشعر فمجاله الغموض ، حيث يخلق الغموض في الشعر مفاجآت من خلال تعدد المعاني ، والاحتمالات المختلفة في التفسير .

يقول أسحق الصابي : " إن طريق الإحسان في منثور الكلام يخالف طريق الإحسان في منظومه ، لأن الترسل هو ماوضح معناه ، وأعطاك سماعه في أول وهلة ماتضمنته ألفاظه . وأفخر الشعر ماغمض ، فلم يعطل غرضه إلا بعد مماطلة منه " [١٢] . فقد جعل الغموض معيار الشعر الفاخر .

وقد اشار الصابي الى أن غموض الشعر نتيجة كون الشعر كلاماً محدداً يعبر به عما هو غير محدود بسبب من طبيعته الأثارية للأشياء دون شرحها ، يقول الصابي : " أن الشعر على حدود مقررة وأوزان مقدرة ٠ فلما كان النفس لايمتد في البيت الواحد بأكثر من مقدار عروضه وضربه وكلاهما قليل ، أحتيج أن يكون الفصل في المعنى ، فأعتمد أن يلطف ويدق " [١٣] ٠

ويبدو أن الصابي يشير بمقولته كل " إلى قيمة الرمز في الشعر من حيث ماينقله من إيحاءات فهو يشير الى المعنى ولا يشرحه " [١٤] مما يذكرنا بفكرة الشعر من حيث هو عرض للعام من خلال الخاص ٠

كذلك يفعل المرزوقي (ت٤٢١ هـ) في شرحه لديوان الحماسة في معرض تفريقه بين الشعر والنثر، فقد حدد المرزوقي أركان عمود الشعر التي تنفي صفة الغموض أو عمق الأستعارة عن الشعر الجيد وتحبذ وتلزم الشاعر بضرورة أبتاع الوضوح ، وقرب التشبيه ، ومناسبة المستعار منه للمستعار له ، يقول : " انهم كاموا يحاولون شرف المعنى وصحته ، وجزالة اللفظ وأستقامته ، والأصابة في الوصف - ومن اجتماع هذه الأسباب الثلاثة كثرت سوائر الأمثال ، وشوارد الأبيات – والمقاربة في التشبيه ، وألتحام أجزاء النظم

والتئامها على تخير من لذيذ الوزن ، ومناسبة المستعار منه للمستعار له ، ومشاكلة اللفظ للمعنى،وشدة أقتضائها للقافيةحتى لامنافرة بينهما– فهذه سبعة أبواب هي عمود الشعر" [١٥] ٠

ومن خلال هذا التصور عند المرزوقي ، فقد لجأ الى تفضيل النثر على الشعر ، وقد عد سبب كثرة الشعراء الى أن الشاعر يستطيع أن يؤدي شعره بكل مافيه من غموض وخفاءوغرابةدون أهتمام بالوضوح في المعاني والألفاظ ، وهذا يعد أمراً يحتاج الىمعاناة وجهد،ولذا فأن المترسلين يعانون في سبيل الوضوح في المعاني والألفاظ أكثرمن الشعراء ،وبهذا يكون الغموض سمة للضعف في الشعر٠ يقول: "وكان الشاعر يعمل قصيدته بيتاً بيتاً ،وكل بيت يتقاضاه بالأتحاد ،وجب أن يكون الفضل في أكثر الأحوال في المعنى، وأن يبلغ الشاعرفي تلطيفه. والأخذ من حواشيه، حتى يتسع اللفظ له، فيؤديه علىغموضه وخفائه " [١٦]

واستخدم عبد القاهر الجرجاني (ت٤٧١ هـ) مصطلح الغموض من خلال الأشارة أليه مباشرة أو من خلال تسميات تدل عليه مثل التوسع [١٧] ، والغرابة [١٨] ، ومعنى المعنى ، حيث بين الجرجاني أن الغموض يكمن في المعنى الثاني أو المستوى الفني المتمثل في العمل الأدبي سواء كان نثراً أو شعراً .

يقول : " الكلام على ضربين : ضرب أنت تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده وذلك إذا قصدت أن تخبر عن زيد مثلاً بالخروج على الحقيقة فقلت خرج زيد . وبالأنطلاق عن عمرو فقلت : عمرو منطلق : وعلى هذا القياس ، وضرب آخر أنت لاتصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده ولكن يدلل اللفظ على معناه الذي يقتضيه " موضوعه في اللغة ثم تجد لذلك المعنى دلالة ثانية تصل بها الى الغرض ومدار هذا الأمر على الكتابة والأستعارة والتمثيل " [١٩] ٠

ونجد أن عبد القاهر الجرجاني قد تعمق في مسألة الغموض وقلب فيها الوجوه وركز على الغموض من جهة تعلقه بطريقة التعبير الشعري الناتج عن طريقة التفكير الشعري فقد جعل عبد القاهر الغموض مدار البلاغة منفردة بذلك عن العلوم الأخرى جميعها التي تعتمد التصريح ٠وفي ضوء ما سبق ، فقد أستقر مصطلح الغموض بتسمياته المختلفة عنده٠

ثانياً : عناصر الغموض عند عبد القاهر الجرجاني :

لقد بيَّن عبد القاهر الجرجاني أهمية الغموض وعناصره ، وفرق بين الغموض والتعقيد السلبي الناشئ عن الضعف والركاكة وسوء الفهم ، كما أبرز الفرق بين الغموض والوضوح، إذ أن سمة الغموض ركيزة اساس ولذا فقد عد الجرجاني سوء النظم والتأليف وانغلاق الكلام سبباً من أسباب التناهي في الغموض إلى درجة التعقيد ، يقول : " وأعلم أن لم تضق العبارة ولم يقصر اللفظ ولم ينغلق الكلام في هذا الباب إلا أنه قد تناهى في الغموض والخفاء إلى أقصى الغايات " [٢٠] ٠ ويكشف هذا الموقف للجرجانى عن ادراكه لاهمية الغموض فى اثارته للدهشة ولاستفزاز للمتلقى ،ومن هنا فان

الجرجاني لايعارض الوضوح والقرب في المعاني الادبية شريطة ان لايصل هذا الوضوح الى حد السطحية والركاكة والضعف . فالنص الذى تتعدد وجوه الأويل فيه ويستفز القارىء الى بذل الجهد في المتابعة والتذكير هو الأصيل. كما أن وضوح النص في ظاهرة ، وفي قراءة القارىء الأولية له لايعني الوضوح السطحي، فقد يبدو القول التالي :(كالبدر أفرط في العلو) سهلاً وبسيطاً ، بيد أن المتفحص لهذا التشبيه يخرج إلى معاني أخرى إضافية تحتاج إلى التفكير والدقة . يقول الجرجاني : هذا وليس إذا كان الكلام في غاية البيان وعلى أبلغ ما يكون من الوضوح أغناك ذاك عن الفكرة إذا كان المعنى لطيفاً ، فإن المعاني الشريفة اللطيفة لابد فنها من بناء ثان على أول، ورد تال إلى سابق ، أفلست تحتاج في الوقوف على الغرض من قوله "كالبدر أفرط في العلوً " الى أ ن تعرف البيت الأول ، فتتصور حقيقة المراد منه، ووجه المجاز في كونه دانياً شاسعاً، وترقم ذلك في قلبك ثم تعود إلى ما يعرض البيت الثاني عليك من حال البدر، ثم تقابل إحدى الصورتين بالأخرى وترد البصر من هذه إلى تلك وتنظر أليه كيف شرط في العلو الإفراط .

ليشاكل قوله " شاسع " لأن الشسوع هو الشديد من البعد، ثم قابله بما لا يشاكله من مراعاة التناهي في القرب، فقال " جدً قريب " فهذا هو الذي أردت بالحاجة إلى الفكر ، وبأن المعنى لا يحصل لك إلا بعد انبعاث منك في طلبه وأجتهاد في نيله " [٢١] .

فمجال الغموض عند الجرجاني أذن يكمن في المستوى الفني للعمل الإبداعي المتمثل في ضروب البلاغة المختلفة مثل الكتابة والمجازوالاستعارة والتشبيه ثم في الصورة والصياغة . يقول ((قد أجمع الجميع على أن الكتابة أبلغ من الأفصاح والتعريض أوقع من التصريح وأن للاستعارة مزية وفضلاً . وأن المجاز أبداً أبلغ من الحقيقة)) [٢٢] . وهذا الفهم هو ما عبر عنه الجرجاني في موقع آخر من كتابه دلائل الأعجاز ليسميه بمعنى المعنى وهو المستوى الفني الذي يقع فيه الغموض . يقول ((وإذ قد عرفت هذه الجملة فها هنا عبارة مختصرة وهي أن نقول المعنى ومعنى المعنى أن تعقل من اللفظ معنى ثم يفضي ذلك المعنى إلى معنى آخر)) [٢٣] .

وقد أستعمل الجرجاني مصطلح الغرابة ليشير إلى الغموض الفني إذ يقول :" والمعنى الجامع في سبب الغرابة أن يكون الشبه المقصود من الشيء مما لا ينزع أليه الخاطر ، ولا يقع في الوهم عند بديهة النظر إلى نظيره الذي ليشبه بل بعد تثبت وتذكر وفكر للنفس في الصور التي تعرفها وتحريك الوهم في استعراض ذلك واستحضار ما غاب منه"[٢٤].

كما أشار الجرجاني إلى مرادفات أخرى للغموض مثل التعقيد غير المقصود ، والتعمية ، وهذا ما يكسب العمل الإبداعي قوة وخصوصية فنية ، وأما إذا كان التعقيد والتعمية مقصودين لذاتهما فأن ذلك يفقده خصوصيته ، ويبعده عن جوهره . يقول : " وأشباه ذلك مما ينال بعد مكايدة الحاجة أليه ، ونقدم المطالبة من النفس به ، فأن قلت فيجب على هذا أن يكون التعقيد والتعمية وتعمد ما يكسب المعنى غموضاً مشرفاً له وزائداً في فضله ، وهذا خلاف ما عليه الناس . ألا تراهم قالوا : أن خير الكلام ما كان معناه إلى قلبك أسبق من لفظة إلى سمعك ، فالجواب أني لم أرد هذا الحد من الفكر والتعب ، و إنما أردت القدر الذي يحتاج إليه في نحو قوله : فان المسك بعض دم الغزال " [٢٥] .

وقد اشارالجرجاني في مواقع أخرى من كتابية دلائل الأعجاز وأسرار البلاغة جوهر الغموض المتمثل في الإشارة والكناية والرمز والصياغة والصورة ، حيث تبرز هذه الأشكال والموضوعات البلاغية أهمية الغموض . يقول : " ثم إن التوق إلى أن تقر الأمور قرارها ، وتوضع الأشياء مواضعها،والنزاع إلى بيان ما يشكل ، وحل ما يتعقد ، والكشف عما يخفى ، وتخليص الصفة حتى يزداد السامع ثقة بالحجة ، وأستظهاراً على الشبهة ، واستبانه للدليل ، وتبيناً للسبيل شيء في سوس العقل ، وفي طباع النفس إذا كانت نفساً ولم أزل منذ خدمت أنظر فيما قاله العلماء في معنى الفصاحة والبلاغة ، والبيان والبراعة ، وفي بيان المغزى من هذه العبارات وتفسير المراد بها ، فأجد بعض ذلك كالرمز والإيماء والإشارة في خفاء ، وبعضه كالتنبيه على مكان الخبيء ليطلب ، وموضع الدفين ليبحث عنه فيخرج ، وكما يفتح لك الطريق إلى المطلوب لتسلكه ، وتوضع لك القاعدة لتبني عليها ، ووجدت المعول على إن هاهنا نظماً وترتيباً ، وتأليفا وتركيباً ، وصياغة وتصويراً ، ونسجاً وتعبيراً ، وأن سبيل هذه المعاني في الكلام الذي هي مجاز فيه سبيلها في الأشياء التي هي حقيقة فيها . وأنه كما يفضل هناك

النظم النظم والتأليف التأليف ، والنسج النسج والصياغة الصياغة ، ثم يعظم الفضل . وتكثر المزية حتى يفوق الشيء نظيره ، والمجانس له درجات كثيرة ، وحتى تتفاوت القيم التفاوت الشديد ، كذلك يفضل بعض الكلام بعضاً ويتقدم منه الشيء الشيء ، ثم يزداد من فضله ذلك ويترقى منزلة فوق منزلة ، ويعلو مرقباً فوق مرقب ، ويستأنف له غاية بعد غاية ، حتى ينتهي إلى حيث تنقطع الأطماع ، وتحسر الظنون ، وتسقط القوى ، وتستوي الأقدام في الحجز " [٢٦] .

فمجال الغموض في النص الإبداعي هو الصياغة والتأليف والإشارة والرمز ، فضلاً عن الكتابة والتلويح والتعريض . وهذه المصطلحات تجسد معنى الغموض ، وتبتعد عن سلبية المعنى الظاهري للكلمة . ولهذا فالنص الأدبي يستمد طاقته المتجددة من ضروب البلاغة التي تجعل متلقيه يحتاج إلى طول التدبر والتفكير لكي يصل إلى فهمه ومعرفة ظلاله وإيحاءاته . يقول : " وأعلم أن ذلك الأول وهو المشترك العامي ، والظاهر الجلي والذي قلت أن التفاضل لا يدخله ، والتفاوت لا يصح فيه ، وإنما يكون كذلك منه ما كان صريحاً ظاهراً لم تلحقه صنعة وساذجاً لم يعمل فيه نقش ، فأما إذا ركب عليه معنى ، ووصل به لطيفة ، ودخل إليه من باب الكناية ، والتعرض ، والرمز ، والتلويح ، فقد صار بها غير من طريقته ، وأستأنف من صورته ، وأستجد له من المعرض ، وكسى من ذلك التعرض ، داخلاً في قبيل الخاص الذي يملك بالفكرة والتحمل ، ويتوصل إليه بالتدبر والتأمل . كقوله :

أن السحاب لتستحي اذا نظرت الى نداك فقاسته بما فيها [٢٧]

فضلاً عن ما جاء من عناصر الغموض عند الجرجاني ، فقد تبين أن قيمة المجاز والاستعارة والتمثيل تكمن في الغموض الذي يمنح النص حياة وقوة ويجعله متجدداً عند متلقيه . ويكمن هذا التجدد من أنزياح الكلام في النص عن ظاهر اللفظ ، وهذا ما يستفز المتلقي إلى إمعان النظر في النص ، وإدراك اسراره وصوره وإيماءاته ، فالأنزياح في ايحاءته هو مجال الغموض ، ويتمثل هذا الغموض والأنزياح في المجاز وضروبه البلاغية ، يقول : " أعلم أن الكلام الفصيح ينقسم قسمين قسم تعزى المزية والحسن فيه إلى اللفظة ، وقسم يعزى ذلك فيه إلى النظم ، فالقسم الأول الكناية والاستعارة والتمثيل الكائن على حد الأستعارة وكل ما كان فيه على الجملة مجاز وأتساع وعدول باللفظ عن الظاهر ، فما من ضروب عن هذه الضروب إلا وهو إذا وقع على الصواب وعلى ما ينبغي أوجب الفضل والمزية " [٢٨] .

الشيء بالشيء ، من جهة ما أردت من لون أو صورة أو غيرها إلا أنك تعلم أن هذا التشبيه لا يتم لك إلا بالتأويل . وذلك أن تقول حقيقة ظهور الشمس وغيرها من الأجسام أن لايكون دونها حجاب ونحوه مما يحول بين العين وبين رؤيتها ، ولذلك يظهر الشيء لك ولايظهر لك إذا كنت من وراء حجاب أو لم يكن بينك وبينه ذلك الحجاب "[٢٩] كما حاول الجرجاني التركيز على مصطلح الغموض نفسه ، مبيناً ، أهمية العقل في ادراك الفكرة التي يعبر عنها من خلال ضروب البلاغة ، والصياغة والتأليف . فالجرجاني هو ذلك الناقد العقلاني الفذ الذي يرفع من قيمة الفكرة ، ويرى الوصول إليها من أهم أنواع اللذة النفسية في تتبع صور الجمال أما المجاز والأستعارة والتشبيه والتمثيل ضروب تحرك القارئ إلى معرفة الفكرة وإدراكها ، وبهذا يستطيع المبدع أن ينقل القارئ من منطقة العقل وتتبع الفكرة إلى منطقة الحس والشعور، وهذه غاية أساسية تجاه المتلقي•يقول الجرجاني : " ومن المركوز في الطبع أن الشيء إذا نيل بعد الطلب له أو الاشتياق إليه ، ومعاناة الحنين نحوه ، كان نيله أحلى ، وبالميزة اولى ، فكان موقعه من النفس أجل وألطف ، وكانت به أضن وأشغف ، وكذلك ضرب المثل لكل ما لطف موقعه ببرد الماء على الظمأ كما قال :

وهنّ ينبذن من قول يصبن به مواقع الماء من ذي الغلة الصادي

وأشباه ذلك مما ينال بعد مكايدة الحاجة إليه ، وتقدم المطالبة من النفس به ، فان قلت فيجب على هذا إن يكون التعقيد والتعمية وتعمد ما يكسب المعنى غموضاً مشرفاً له وزائداً في فضله " [٣٠] .

وعد الجرجاني التباين في أطراف التشبيه أكثر قدرة على شد المتلقي و أثارته واستفزازه لما في هذا التنافر من غموض يحرك العقل والحس معاً . يقول : " كلما كان مكان الشبه بين الشيئين أخفى وأغمض وأبعد من العرف كان الإتيان بكلمة التشبيه أبين وأحسن وأكثر في الاستعمال " [٣١] .

ولعل استخدام كلمة الغموض والإصرار عليها إلى جانب المرادفات الأخرى لها مثل التعقيد والتعمية والغرابة والإشارة والتلويح والتعريض ، فضلاً عن المجاز والكتابة والاستعارة والتشبيه يعود لما لهذا الموضوع من قدرة على إخفاء الخصوصية الفنية على العمل الإبداعي ، ذلك العمل الذي يثير القارئ عقلاً وحساً ، يقول الجرجاني : " ثم ان ما طريقه التأول يتفاوت تفاوتاً شديداً ٠ فمنه ما يقرب مأخذه ويسهل الوصول إليه ويعطي المقادة طوعاً ، حتى أنه يكاد يداخل الضرب الأول الذي ليس من التأول في شيء ، وهو ما ذكرته لك ومنه ما يحتاج في استخراجه إلى فضل رؤية ولطف وفكرة " [٣٢] ٠

وبهذا يكون الجرجاني قد استطاع إبراز أهمية الغموض ، وإن ضروب الغموض تشتمل على الصياغة والتركيب ، فضلاً عن ضروب البيان والمعاني والبديع إضافة إلى ذلك فقد ربط عبد القاهر الجرجاني الغموض باللذة العقلية والحسية عند القارئ ،

فالجرجاني قد أدرك أهمية الغموض بأنماطه المختلفة ، ومنحه الخصوصية الفنية والجمالية ، إذ أن النص الأدبي البعيد عن الغموض الفني نصاً سطحياً لا يرقي إلى العمل الإبداعي الحقيقي الذي يجعل القارئ جزءاً من العملية الإبداعية ، ومشاركاً فيها من خلال وقوعه في دائرة التأويل والتفسير ، وتعدد المعاني والاحتمالات ٠واذ قطع النقاد شوطاً إيجابياً في مناقشة الغموض ، فأنه بقي أن نشير إلى مسألة على قدر من الأهمية ، وهي أن الغموض الذي ذهبوا إليه لا يتقاطع مع الوضوح والإبانة بل هو محقق لهما ومنتهه إليهما ، وقد أحترز عبد القاهر من التعقيد ، والتعمية وذم الغموض الذي ينتهي إلى التعقيد ، وعبد القاهر إذ ينتصر للغموض مؤيداً المعنى المحتاج إلى الفكر ، فهو ينكر غير الواضحة وغير البينة وان كان من سمتها الغموض ٠

ثالثاً : الغموض والمتلقي

إن إثارة مشكلة الغموض من صميم البحث في جوهر الشعر أساساً ، لأن الشعر يقوم أساساً على الغموض [٣٣] ٠ فالغموض المثقل بالدلالات والإيحاءات والصور ناتج عن الكثافة والحدة الشعرية ٠ وهذه الحدة الشعرية نابعة من أساليب البلاغة ، ولاسيما اسلوب العدول أو الأتساع وهو تجاوز اللغة الشعرية للوصف المباشر والتعبير عن الحقيقة إلى إيحاءات ودلالات إضافية تشكل مجال النص وجوهره ٠ كما أن الغموض المتولد عن أساليب البلاغة مثل أسلوب الالتفات والتشبيه والاستعارة والمجاز والتورية والكناية وغيرها يخلق نوعاً من تعدد احتمالات المعنى ، فضلاً عن أتساع دائرة التأويل والتفسير ٠ وهو نتيجة أساسية تميز النص الشعري عن غيره ، وتمنحه الخصوصية الفنية والجمالية[٣٤].

فالمتلقي يحتل مساحة مهمة ومركزية ، ويعد محوراً رئيسياً، بل ومشاركاً في إعادة إنتاجه وخلقه[٣٥] ٠ فالمتلقي يقوم بدور هام ورئيسي ، ولعل دوره يكمن في إعادة تفكيك النص وانتاجه مرة أخرى ، لأنه مثقل بالدلالات والإيحاءات بسبب غموضه إمكانيات متعددة ، واحتمالات مختلفة للتأويل والتفسير ٠فالغموض الذي يواجه المتلقي ناشئ عن أهتزاز الصورة الثابتة لعلاقة الدال بالمدلول ، بحيث تصبح الكلمات والتعابير دلالات جديدة متشابكة مع غيرها ٠ فلهذه المعاني ، وذلك على خلاف ما كانت تعبر عنه من معاني وأسماء قبل دخولها في الصياغة ٠ فلهذه المعاني والتعابير دلالات محددة في نفس القارئ ، بيد أن دخول هذه الكلمات والتعابير ضمن صياغة جديدة يكسرطبيعة النمط المألوف لهذه الكلمات في نفس المتلقي ، وتصبح لهذه الكلمات والتعابير اكثر من معنى وصورة ودلالة [٣٦] ٠

يقول الجرجاني : " وهكذا اذا أستقريت التشبيهات وجدت التباعد بين الشيئين كلما كان أشد ، كانت إلى النفوس أعجب أو كانت النفوس لها أطرب ، وكان مكانها إلى أن تحدث الأريحية أقرب ، وذلك أن موضع الأستحسان ، ومكان الأستضراف ، والمثير للدفين من الرتياح ، والمتألف للنافر من المسرة والمؤلف لأطراف البهجة ... ولذلك تجد تشبيه البنفسج في قوله :

أغرب وأعجب ، وأحق بالولوع وأجدر ، من تشبيه النرجس بمداهن در حشوهن عقيق ، لأنه اذا ذاك مشبه لنبات غض يرف وأوراق رطبة ترى الماء منها يشف بلهب نار مستول عليه اليبس ، وباد فيه الكلف ، ومبنى الطباع وموضوع الجبلة على أن الشيء اذا ظهر من مكان لم يعهد ظهوره منه ،

وخرج من موضع ليس بمعدن له ، كانت صبابة النفوس به أكثر ، وكان بالشغف منها أجدر ، فسواء في أثارة العجب ، واخراجك الى روعة المستغرب ، وجودك في مكان ليس من أمكنته [٣٧] ٠

إن المناوشة الفكرية والنفسية ما بين المتلقي والنص المثقل بالغموض ، والمبني من خلال الأساليب البلاغية تجعل المتلقي أكثر تحفزاً وقلقاً وتؤثراً إزاء المفاجآت ، والأحتمالات المتعددة والدلالات المتباينة للمعاني لمعرفة التناسق بين هذه المعاني والتعابير الشعرية ، وذلك للوصول الى أدراك سر النص الابداعي وغايته ، وفك ألغاز صوره ودلالاته ، والوقوف على الأهتزاز الحاصل بين المعاني والتعابير قبل دخولها النص ، والبنية التي آلت اليها بعد دخولها النص ، ولعل هذا التوتر والمتابعة ما بين المتلقي والنص يخلق نوعاً من التواصل ٠

خاتمة :

الغموض المبدع عند عبد القاهر الجرجاني هوالذي يحمل كلاماً على كلام ويبقى بؤرة للتأويل والإيحاء والتوليد والحياة التي لاتجف أو تنضب هو "طبيعة شعرية" أن الشعر موقف حضاري علم شامل لذلك يعكس كل تشابكات وتجربات هذه الحضارة الأنسانية ، كما يفجر كل مافي الوجدان الفردي وهواجسه في مستويات رمزية أو أدبية عدة٠ إن الشعر يرينا الحياة في متباياتها وهو يؤاخي بينها أثناء التركيب الذي يعيد المتلقي تحليله ليقبض على الدلالات وينتج بنفسه الغاية أو المعنى٠

فلأنه كذلك ولان اللغة التي تسعفة لغة ذات قدرة أيحائيه جديدة تتحلق في سياق دون أن تفقد علاقاتها وشحناتها النفسية والروحية فأنه غامض في ما يومض به لافي مايصرح به ، ساحر في مهمته الوجدانية بالدرجة الأولى ، وهو يخرج على ماهو مألوف من علاقات٠

الهوامش :

١. ابن منظور : لسان العرب : مادة "غمض" ٠
٢. الخواجة ، دريد علي : الغموض الشعري في القصيدة العربية الحديثة ، دار الذاكرة ، ط١، حمص ١٩٩١ ، ص ٦٥-٦٦ ٠
٣. ينظر خليل حلمي : العربية والغموض ، دار المعرفة ، ط١ ،١٩٨٨ ، ص٨ ٠
٤. سيبويه ، أبو بشير عمرو بن بحر ، البيان والتبين ، تحقيق ، عبد السلام ، هارون ، القاهرة ١٩٦٦ ، ج ٤٨/١ ٠
٥. الجاحظ: عمرو بن بحر، البيان والتبيين، تحقيق ، عبد السلام هارون، دار الفكر، لبنان، ج١ ، ٧٥ .
٦. محمود، احمد حمدي: مبادئ الفن، الدار المصرية للتاليف والترجمة، ص١٤١.
٧. اسماعيل، عز الدين، الشعر العربي المعاصر، دار العودة ودار الثقافة، بيروت، ط٣، ١٩٨١،، ص٣٦.
٨. الجاحظ:البيان والتبيين: ج١/ ٩٠.
٩. المصدر نفسه: ج١/ ٨٩-٩٠ .
١٠. الأمدي ، أبو القاسم الحسن بن بشر: الموازنة بين ابي تمام والبحتري،تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، دار المسيرة، بيروت ص١١ .
١١. المصدر نفسه، ص١٠ .
١٢. ابن الأثير، ضياء الدين: المثل السائر، تحقيق احمد الموفي، وبدوي طبانة، مطبعة
١٣. الرسالة، بيروت ١٩٦٢ ، ج٤/ ٦ – ٧ ٠
١٤. المصدر نفسه ، ص١١ ٠
١٥. المصدر نفسه ، ص١٢ ٠
١٦. المرزوقي ، أبو علي : شرح ديوان الحماسة (المقدمة) ، تحقيق أحمد أمين وعبد السلام هارون : القاهرة ١٩٥١ ، ج١/ ٩ ٠
١٧. المصدر نفسه : ج١ / ١٨ ٠
١٨. ينظر الجرجاني ، عبد القاهر : أسرار البلاغة ، تحقيق السيد محمد رشيد رضا ، دار المعرفة، بيروت، ١٩٧٨ ، ص ٢٢ – ٢٣ ٠
١٩. ينظر الجرجاني ، عبد القاهر : دلائل الأعجاز، تحقيق السيد محمد رشيد رضا ، دار المعرفة ، بيروت، ١٩٨١ ، ص١٦٩ ٠
٢٠. الجرجاني : دلائل الأعجاز ، ص٢١٠ ٠
٢١. الجرجاني : اسرار البلاغة ، ص١٢٣ ٠
٢٢. الجرجاني : دلائل الأعجاز ، ص٥٥ ٠

٢٣. الجرجاني : اسرار البلاغة ، ص٢٠٣ ٠
٢٤. المصدر نفسه ، ص١١٨ ٠
٢٥. الجرجاني : دلائل الأعجاز : ص٢٨ ــ ٢٩ ٠
٢٦. الجرجاني : اسرار البلاغة ، ص٢٩٥ ــ ٢٩٦ ٠
٢٧. الجرجاني : دلائل الأعجاز ، ص٣٢٩ ٠
٢٨. الجرجاني : اسرار البلاغة ، ص٧٢ ــ ٧٣ ٠
٢٩. المصدر نفسه ، ص١١٨ ٠
٣٠. المصدر نفسه ، ص٢٨٩ ٠
٣١. المصدر نفسه ، ص٧٣ ٠
٣٢. ينظر الطرابلسي ، محمد عبد الهادي : من مظاهر الحداثة في الأدب ، الغموض في الشعر مجلة فصول / مج٤ ، ع٢ ، ج١٩٨٤ ، ٢٨ ــ ٢٩ ٠
٣٣. ينظر : أبو ديب ، كمال : في الشعرية مؤسسة الأبحاث العربية ، ط١ ، بيروت ، ١٩٨٧ ،ص١٣٢ ٠
٣٤. ينظر : الخواجة ، الغموض الشعرية في القصيدة العربية الجديدة ، ص ٨ ــ ٩ ٠
٣٥. ينظر : ادونيس : الثابت والمتحول ، دار العودة ، ط١ ، بيروت ١٩٧٧ ، ص ١١٧ ــ ١١٨
٣٦. الجرجاني : اسرار البلاغة ، ص ١٢٣ ــ ١٢٤ ٠
٣٧. المصدر نفسه ، ص١٠٩ ــ ١١٠ ٠

المصادر والمراجع :

١. الأمدي ، أبو القاسم الحسن بن بشر : الموازنة بين أبي تمام والبحتري ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، دار المسيرة ، بيروت ٠
٢. ابن الأثير ، ضياء الدين : المثل السائر ، تحقيق احمد الحوفي وبدوي طبانة ، مطبعة الرسالة ، بيروت ١٩٦٢ ٠
٣. ادونيس : الثابت والمتحول ، دار العودة ، ط١ ، بيروت ١٩٧٧ ٠
٤. اسماعيل ، عز الدين : الشعر العربي المعاصر ، دار العودة ، ط٣ ، بيروت ، ١٩٨٣ ٠
٥. الجاحظ : عمرو بن بحر ، البيان والتبيين ، تحقيق عبد السلام هارون ، دار الفكر ، بيروت ٠
٦. الجرجاني ، عبد القاهر :
   - اسرار البلاغة ، تحقيق محمد رشيد ، دار المعرفة ، بيروت ١٩٧٨ ٠
   - دلائل الأعجاز ، تحقيق محمد رشيد ، دار المعرفة ، بيروت ١٩٨١ ٠
٧. خليل حلمي : العربية والغموض ، دار المعرفة الجامعية ، ط١ ، الأسكندرية ١٩٨٨ ٠
٨. الخواجة ، دريد يحيى : الغموض الشعري في القصيدة العربية الحديثة ، دار الذاكرة ، ط١ ، حمص ١٩٩١ ٠
٩. ابو ديب ، كمال : في الشعرية ، مؤسسة الأبحاث العربية ، ط١ ، بيروت ١٩٨٧ ٠
١٠. سيبويه ابو بشير عمرو بن عثمان : الكتاب ، تحقيق عبد السلام هارون ، القاهرة ١٩٦٦ ٠
١١. الطرابلسي ، محمد الهادي: من مظاهر الحداثة في الأدب ... الغموض في الشعر، مجلة فصول ، مجم٤ ، ع٢ ، ج٢ ، ١٩٨٤ ٠
١٢. المرزوقي ، ابو علي : شرح ديوان الحماسة (المقدمة) ، تحقيق احمد امين وعبد السلام هارون ، القاهرة ١٩٥١ ٠
١٣. ابن منظور : لسان العرب ، دار صادر ، بيروت تاريخ الطبع ١٩٥٥ ٠